

المسار التحولي للشعرية من الأنموذج البلاغي الأرسطي إلى الأنموذج البنيوي

The Transformational pathway of poetics from the Aristotelian rhetorical paradigm to the structural linguistic paradigm

دا.بن شيحة نصيرة

قسم اللغة العربية وآدابها-المركز الجامعي أحمد زبانة-غليزان(الجزائر)

nacera.benchiha@cu-relizane.dz

تاريخ القبول: 2020/06/12

تاريخ الإيداع: 2020/04/30

ملخص: تسعى هذه المقالة إلى تعقب المسار التحولي الذي شهدته الشعرية بدءاً من ظهورها، المرتبط بالأنموذج البلاغي الأرسطي، الذي يعد بمثابة السند التأسيسي لمبحث الشعرية، بوصفها مجالاً بحثياً يهدف إلى وضع القواعد والمعايير التي تحدد الملامح الفنية والجمالية للأجناس الأدبية التي تنهض على عنصر التمثيل والمحاكاة.

إلا أن هذا المفهوم التأسيسي الذي اكتسبته الشعرية مع أرسطو، قد تعرض لانعطافات متعددة دفعت إلى تغيير مساره التحليلي، فكان أن تأثرت جل المباحث الأدبية -بما فيها الشعرية- بطبيعة التحول الفني والأدبي الذي أفرزته المرحلة الرومانسية، الذي أحال وقائع تحليل النص الأدبي إلى مقارنة نفسية واجتماعية لا تمت بصلة للبنية الداخلية للعمل الأدبي، وهو ما أدى إلى ضرورة انفتاح الدراسات الأدبية على الإجرائية العلمية التي تركزت في الأنموذج اللساني البنيوي.

الكلمات المفتاحية: الشعرية - الجمالية - البلاغة --الأجناس الأدبية- البنيوية-الخطاب.

Abstract:

This article attempts to track the transformative path that poetry has walked down since its emergence. An emergence that was linked to the Aristotelian rhetorical paradigm and represented the founding basis for the poetic research, as a field of research that aimed at setting rules and standards to define the technical and aesthetic features of the literary genres. These literary genres hence relied on the element of representation and simulation.

However, this foundational concept that poetics acquired with Aristotle, has been subjected to multiple turns that led to changing its analytical path. Therefore, the literary fields of study - including poetics - were influenced by the nature of the artistic and literary transformation

produced by the romantic phase. This same transformation led, also, the analysis of the literary text to adapt an unrelated psychological and social approach to the internal structure of literary work. As consequences, it became a necessity for literary studies to open up to the scientific procedure that was enshrined in the structural linguistic model.

key words: poetics - aesthetic - rhetoric - literary genres - structuralism - discourse.

تصدير:

ارتبطت الشعرية بمختلف المنعرجات المنهجية والمعرفية، التي شهدتها الدراسات اللغوية والأدبية، بدءاً من الأنموذج البلاغي التأسيسي الذي اقترحه "أرسطو"، والذي يعكس بدئية الانبثاق المعرفي للمقاربة الشعرية، مروراً بمختلف التحولات التي طرأت على البلاغة الكلاسيكية، وما تمخض عنها من مسارات انعطافية أفرزتها المرحلة الرومانسية، التي ما انفكت تدفع بالدراسات الأدبية -وعلى رأسها الشعرية- صوب مداخل معرفية استفادت من التجاوز النظري والمنهجي الذي أسست له الألسنية.

ومن ثم، فإن محاولة تتبع المسار التحولي للمبحث الشعري (الشعرية)، يستدعي تقصي ملامح التأصيل المرجعي، التي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، فعلى «الرغم من أن الشعرية تشكلت بوصفها فرعاً نظرياً من فروع المعرفة حديثاً، إلا أن لها تاريخاً طويلاً»¹، يرتد عمقه إلى بدئية التفكير النظري في الأدب، الذي يبدو متلازماً مع انبثاق الأدب ذاته².

الأصول المرجعية للشعرية في البلاغة الغربية:

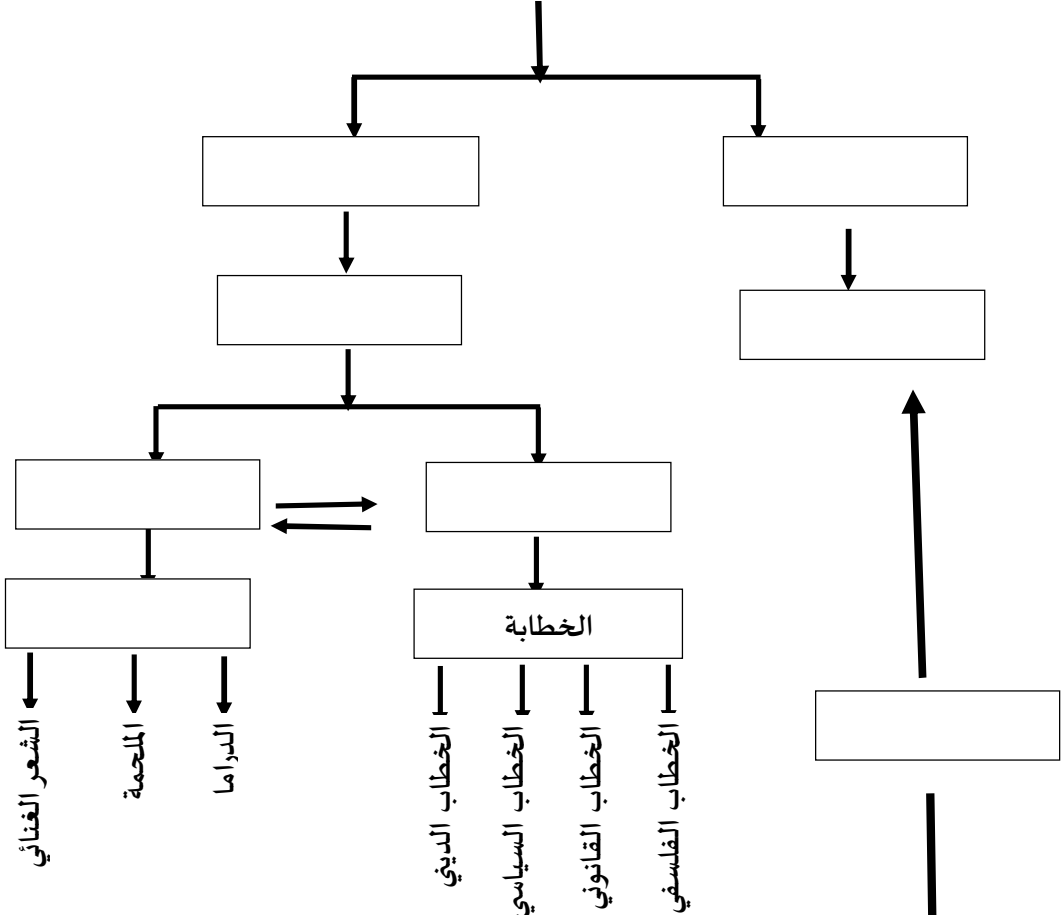
ارتبطت البلاغة في التراث الغربي القديم بشروط إنتاجها التاريخية، التي استوجبت حضور البعدين الفني والمعياري، فقد كانت البلاغة « فناً للتعبير الأدبي وقاعدة في الوقت نفسه»³ وبذلك امتلكت البلاغة في التراث الغربي سلطة مزدوجة، أهلتها للتحكم في شروط إنتاج الخطاب ومقتضيات تحليله.

تماشياً مع هذا الفهم التأسيسي للبلاغة القديمة، انشطرت زوايا النظر إلى الخطاب، تبعاً للدور الوظيفي الذي كانت تتوخى البلاغة تحقيقه، والمتمثل في الدور الإقناعي والإمتاع، الذي يتأتى عبر وضع آلية تكفل تحقيق الجانبين بالاعتماد على البعد الجدلي الذي أفرزته الخطابة، والقيمة الفنية الجمالية التي تعكسها الخطابات، والتي حرصت الشعرية "Poétique" على تجليتها، وهو مطلب تكرر في الأنموذج البلاغي الذي قدّمه "أرسطو"، الذي تأسست فيه «عملية الإقناع على عقلنة الخطاب، دون إلغاء مبدأ إحداث التأثير بواسطة الأهواء»⁴.

وقد سلك "أرسطو" هذا السبيل العقلاني، الذي وازن فيه بين القيمة الجمالية التأثيرية للخطاب (اللوغوس)، والآلية الجدلية للمنطق التي تتحكم في العلاقات المنطقية والحجاجية التي يفرزها الخطاب، دفعا للمغالبة القياسية التي فرضها التيار السفسطائي، الذي أنتج بلاغة تعنيفية فرضت شروطا جدلية تنهض على قياس مغالطي لاستمالة الجمهور عبر مسار استدلالي سلطوي، اتخذ تقنية الجدل للانتقال بفن الخطابة من الإقناع إلى الخداع⁵.

تماشيا مع هذا المسعى التجاوزي، اعتمد "أرسطو" على منطلق جوهرى، استوجب الركون إلى الفاعلية الجدلية التي تفرزها الآلية التحليلية (المنطق)، والفاعلية الجمالية الفنية التي تنتجها الخطابات، وهو ما يمكن أن تتمثله من خلال المخطط التشجري الآتي:

استراتيجية تحليل الخطابات في ظل الانموذج البلاغي الارسطي



الإمتاع عن طريق التمثيل

الإقناع عن طريق الاحتجاج

يتضح من خلال المخطط أن المقاربة الشعرية (*Poétique*) مقارنة فنية للأجناس الأدبية، التي تعكس الحدث التمثيلي للدراما والملحمة والشعر الغنائي، كونها أجناسا قائمة « على مبدأ المحاكاة أو ما يسمى التمثيل»⁶، والتي تترد إلى تقسيم ثلاثي ينهض على مبدأ التفاضل بين الأجناس الأدبية⁷، اكتسبت من خلاله الدراما والملحمة -على التوالي- موقعا مركزيا من شعرية "أرسطو"، بخلاف الشعر الغنائي الذي شغل مكانة هامشية ضمن صنافة الأجناس الأدبية، التي عمد "أرسطو" إلى تحديد معالمها، وسمات تفردتها، من خلال « التركيز على مفهوم المحاكاة»⁸ قصد استنباط القوانين والقواعد المتحكمة في آلية اشتغالها، التي ستغدو نموذجا ومعيارا يحتذى به في صياغة الأجناس الأدبية، « ذلك أن أرسطو ينتقل من وقائع أدبية وينتهي بقوانين مستنبطة من تلك الوقائع»⁹.

وبذلك تحددت معالم الاشتغال البلاغي الكلاسيكي لدى "أرسطو" بربط « الخطابات بواقعها الاجتماعي عبر اللغة ووساطتها الإقناعية، التي تبحث عن التأييد والإجماع العقلي بدل الإقناع البرهاني السلطوي»¹⁰ الذي أوغل السفسطائيون في تفعيله بالاعتماد على القياس الجدلي المغالط الذي مارس سلطته التضليلية على المتلقي (الجانب الاجتماعي للخطاب) واكتفى بها، وهو الأمر الذي استدركه "أرسطو" باستحضار المظهر اللغوي للخطاب (اللوغوس)، وتحديد السمات الطابعية الجدلية والجمالية التي ينهض عليها.

بناء على هذا التصور التأسيسي، استمدت مجمل المقولات البلاغية الكلاسيكية منطلقاتها من محصلة التراكم المعرفي الذي أفرزته النظرية البلاغية الأرسطية، التي ما فتئت أن تحولت إلى أنموذج معياري ثابت، أصبحت بموجبه الشعرية مهيمنة منهجيا يستند على الإطار التفسيري الذي خضع له الأنموذج البلاغي الأرسطي. وبذلك غدت الشعرية « معيارا للإنتاج الأدبي، معيارا متعاليا بوصفه نظاما عقليا من الخصائص الثابتة، فهي ليست وصفا للظاهرة الأدبية أو تفسيرها لها، بل استبدلت على يد الكلاسيكية قيمتها العلمية بسلطتها المعيارية، فإذا بالبحث يتقلص إلى شروح وتأويلات تحكمية للنظرية الأرسطية في الشعرية»¹¹.

تماشيا مع هذا المسار التحولي، انحصر اهتمام البلاغة الكلاسيكية ضمن حدود « تبيين الأفكار والحجج، واستثمارها في صور بيانية وأسلوبية دقيقة التحديد والتصنيف والتعديد»¹²، وذلك بعد أن انتقل محور الشعرية من قطب التنظير التأسيسي القائم على المنهج الاستقرائي للنص الأدبي (الدراما والملحمة)، إلى مجالات التنظير الاستقرائي للمدونة البلاغية الأرسطية، وهو ما أدى بالبلاغة الكلاسيكية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى

الاكتفاء بالنسق « المنطقي الاستنتاجي الذي ورثته عن بلاغة أرسطو»¹³، فكان أن عمدت إلى تصليب مقولاتها النظرية وفقا للمركزات المنطقية التي أفرزها النموذج البلاغي الأرسطي، والالتزام بنسقيتها الجدلية التي أحالت المنظومة البلاغية الكلاسيكية إلى مقارنة معيارية جامدة مفرغة من الحس الجمالي الذي يفضي إليه الخطاب الأدبي، وهو ما « جعل منها فنا معياريا، وجمّدها في قوالب وصيغ ثابتة لا تواكب تطور الفن الأدبي، وأشكاله المختلفة من جهة، والتغير المستمر في النظر إلى الفن من جهة أخرى»¹⁴ الذي تمكنت الحركة الرومانسية من احتوائه، بفعل مساهمتها للتحويل الفني الذي ساهم في انبثاق معالم نصية أدبية جديدة. وبذلك، فقدت البلاغة الكلاسيكية سلطتها المرجعية وموقعها المركزي الذي استحوذت عليه ردحا من الزمن، ضمن مسارها التحولي الذي انعطف بمحور البلاغة القديمة من النموذج الأرسطي التأسيسي، إلى نموذج بلاغي متصلب حُرْم من الأسس الميتافيزيقية والجمالية التي كانت تدعّمه¹⁵، فكان أن استحالت المقاربة البلاغية -في ظل التصور الديكارتي- إلى نسق صوري رياضي مغلق، يتفاعل مع العلوم التجريبية، وفقا لإجرائية مادية آلية، تعترف بأن الوقائع التي يمكن أن تخضع للتحليل، هي الوقائع التي « تحظى بتقدير العلوم الطبيعية»¹⁶، بخلاف الملامح الفنية والجمالية التي تسم النص الأدبي، والتي تستعصي على إجرائية التحليل التي اقترحها ديكارت.

مآل الشعرية في ظل المقاربات النقدية الحديثة:

مما لا شك فيه أن الفراغ الذي خلفته البلاغة الكلاسيكية على المستوى الأدبي، إثر الانزلاقات المرحلية التي شهدتها البلاغية الغربية بفعل اكتفاءها بالنسق المنطقي، استوجب انبعاث معرفة مغايرة، تطرح بديلا منهجيا يعين على استيعاب سياق المرحلة الفنية والأدبية التي انفلتت عن أسر الرؤية البلاغية الكلاسيكية وتقسيماتها الأجناسية للأدب. وقد تكشف ملامح هذا الوضع المتجدد إثر انبعاث المرحلة الرومانسية، التي تمخضت عن المستجد النصي، الذي تجاوز فكر المرحلة السابقة التي كانت « تعد اللغة انعكاسا في الذاكرة الإنسانية لشكل خارجي»¹⁷، بمنأى عن ماهية التجربة الذاتية للإنسان، التي تتجلى -من المنظور الرومانسي- من خلال التعبير باللغة عن موقف الأديب من الحياة، وموقفه الحر من الإبداع أيضا، فاللغة وفقا لهذا التصور، لم تعد مجرد تمظهر لشكل « لساني ضمن جدول من الأشكال العالمية السابقة أو الخارجة عن التعبير، فالحياة واللغة شيان

يؤخذ لهما اعتبار بما لهما من أمر متفرد لا يعوض. وإن حقيقة هذا المعاش هي التي تؤسس هيمنتها»¹⁸ وسلطتها البديلة عن سلطة البلاغة المعيارية.

إزاء هذا الوضع الذي تخلصت فيه الرومانسية من بقايا الإرث البلاغي الكلاسيكي المتصلب، تمكّن النسق البلاغي في ظل التوجه الرومانسي من إنتاج شروط مغايرة للشروط التي فرضتها البلاغة الكلاسيكية، حيث تبددت معالم المعيار التفاضلي بين الأجناس الأدبية، الذي اكتسب بموجبه الشعر -في التيار الرومانسي- موقعا مركزيا، يتنافى مع التراتبية الأجناسية الكلاسيكية التي حصرت حضوره الفني ضمن زاوية هامشية في مقابل الهيمنة الأدبية لجنسي الدراما والملحمة، وذلك بعد أن عمدت التيارات الرومانسية إلى إبطال الفارق التفاضلي بين الأجناس الأدبية، واستقطاب الملمح الفني والجمالي الذي أصبحت القصيدة الشعرية تؤديه¹⁹.

وعليه، اضطرت الشعرية لاستعادة وضعها المعرفي المنهار، إلى التفاعل مع الوضع الأدبي والفني الذي أفرزه التيار الرومانسي، فكان أن ارتهنت إلى التصورات الفنية المتمخضة عن الوضع الأدبي الجديد لتأسيس معالم فضائها التحليلي، حيث استقطبت المقولات الفنية التي ينهض عليها علم الجمال "*Esthétique*"، والنقد الأدبي "*Critique littéraire*". وبذلك تمكنت الشعرية من تحديد مجالها التصوري الذي ارتبط جانب منها باهتمامات علم الجمال، المتمثلة في « دراسة التذوق والتحسس الجمالي للنصوص الجمالية، أي ماهية التجربة الجمالية بوصفها واقعة لقاء بين المتلقي وبنية العمل»²⁰، بينما انصرف الملمح الثاني للشعرية بتمثل مقولات النقد الأدبي، التي عكفت على معالجة « فردية النص من جهة دلالته (أو محتوياته النفسية والاجتماعية والتاريخية)، وكذلك قيمته الفنية، ومظاهر أسلوب الكاتب»²¹ التي تعكس موقفه النفسي والاجتماعي والحضاري.

تماشيا مع هذا المسعى الذي اقترحه المنظور الفني للتيار الرومانسي، الذي التفت إلى حصر الطاقات الجمالية التي يفرزها الخطاب الأدبي، والتجليات النفسية والاجتماعية التي يكتنزها، استعانت المباحث الأدبية بالمقولات الجوهرية التي يستند عليها علم النفس وعلم الاجتماع، وهو ما دفع إلى اصطبغ الرؤية التحليلية للأدب باسقاطات المنهج النفسي والاجتماعي التي أحالت وقائع التحليل الأدبي إلى مجرد تمثيلات لبواعث العملية الإبداعية، والتي ترتبط أساسا بالمؤلف، وهو ما أدى إلى التماهي مع مختلف التظاهرات التي تعكس شخصيته بمعزل عن الطاقات الجمالية التي تفرزها العناصر البيوية للنص الأدبي²².

في إطار هذا التصور استحال الشعرية إلى جملة من المقاربات النقدية التي هيمنت عليها الفاعلية الذوقية التي ترصد البواعث النفسية والاجتماعية والتاريخية للعملية الإبداعية، والتي لا تمت بصلة للبنية الداخلية للنص الأدبي، فكان أن اكتسبت اللغة في

الدراسات الأدبية موقعا ثانويا، يحاكي وضعها الهامشي الذي اكتسبته في الدرس الألسني بفعل آلية التحليل التي فرضتها التصورات التاريخية والمقارنة للغة.

الروافد المنهجية والإجرائية للشعرية في ظل الأنموذج البنيوي:

مما لاشك فيه أن الطفرة المعرفية التي تمكنت اللسانيات من إحداثها، لم تكن مرهونة بحدث الانبعاث العلمي والمنهجي فحسب. هذا الحدث الذي يعزى إلى القطيعة الاستمولوجية التي أعلن عنها "دوسوسير" *F.DE.Saussure*²³ مع المناهج التقليدية للتيارات اللغوية القديمة، وإنما تجسّد -بشكل أعمق- في ذلك البعد الاختراقي الذي تهيأ للسانيات من خلاله اقتحام المجالات البحثية للعلوم الإنسانية، إذ « أصبح بوسع الدراسات الإنسانية المتنوعة أن تستثمر طرائق اللسانيات كي تحصل على زاوية نظر جديدة إلى قضاياها الخاصة»²⁴، وفقا للمقولات البنيوية المركزية التي أفرزها "دوسوسير" *F.DE.Saussure*، والتي انفلت بموجبهما عن أسر الرؤية التاريخية والمقارنة للغة، التي عجزت عن انتزاع موقع متميز للدرس اللساني، بخلاف ما تهيأ له في ظل الأنموذج البنيوي، الذي أصبحت معه « اللسانيات تحتل موقعا مركزيا داخل العلوم الإنسانية الشيء الذي جعلها تفرض نموذجا التحليلي ومعجمها المفهومي»²⁵.

ولاشك أن الدراسات الأدبية لم تبق بمنأى عن هذا البعد التأثيري للسانيات، إذ عمدت إلى استحضار الأنموذج التصوري الذي اقترحته اللسانيات لمعالجة قضايا اللغة، وعمدت إلى تفعيل مقولاته المركزية، التي تعكس حدث التجاوز التنظيري للمقاربة الألسنية السويسرية التي تعاملت مع اللغة بوصفها « موضوعا مجردا، ونسقا نوابضه خارجة عن الفرد وعن الواقع المادي»²⁶، وهو ما أدى إلى انبثاق معرفة ألسنية بنيوية نتجت عن الأثر التدميري، « للفاعل البسيكولوجي الحر والواعي الذي ظل سائدا في التفكير الفلسفي، وفي العلوم الإنسانية، حتى القرن التاسع عشر»²⁷ الذي شهد انحصارا في الرؤية المنهجية للغة، التي أحالت الوقائع اللغوية إلى مجرد انعكاس لتمظهرات سياقية، ترتبط بعناصر حضارية أو ثقافية أو اجتماعية، لا تعكس النسق الداخلي للغة.

وبذلك تمكنت اللسانيات بفعل استحضارها لمقولات الأنموذج البنيوي من تخلص اللغة من تلك النظرة الهامشية، بفعل القطيعة الإستمولوجية التي أحدثها "دوسوسير" *F.DE.Saussure*، مع التصور اللغوي التقليدي، « ولأن أفكار سوسير تؤسس نموذجا معرفيا جديدا، فقد امتد تأثيرها إلى مختلف العلوم الإنسانية»²⁸، والأدبية التي اعتمدت على

المنطلق الألسني لصياغة نماذجها التحليلية التي ساهمت -بدورها- في تخلص المقاربات الأدبية من معيارية المبحث البلاغي الكلاسيكي، وانطباعية التحليل النقدي الحديث، التي أثبتت عجزها عن تقديم مقارنة مؤسسة على رؤية علمية تستمد دعائمها المنهجية من النسق الداخلي للنص الأدبي.

وقد دفع هذا الفراغ الذي خلفته البلاغة الكلاسيكية والمقاربات النقدية المنبثقة عن التيار الرومانسي، إلى اللجوء إلى النسق المعرفي الذي أنتجته اللسانيات البنيوية، التي أقرت بأن « اللغة نظام، ويجب أن تدرس على هذا: فلا ينبغي أن تؤخذ الحقائق الفردية معزولة بعضها عن بعض، بل على أنها دائما أجزاء من نسق كلي، آخذين في حسابنا أن كل جزء تفصيلي يتحدد تبعا لمكانه من النظام»²⁹.

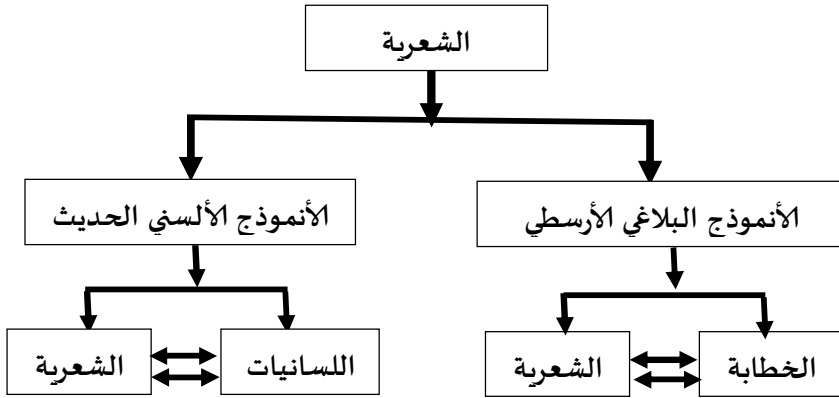
تبعا لذلك، تسنى للشعرية استقطاب هذا المبدأ البنيوي المحايث، فإذا « كانت اللسانيات علما محايا للغة عامة، فالشعرية علم محايت للأدب»³⁰ يستمد منطلقاته الإجرائية من المجال التصوري والمنهجي الذي أفرزته اللسانيات، والذي دفع إلى التعامل مع النص الأدبي برؤية نسقية مغلقة، « أخذت على عاتقها الاكتفاء بالنص الأدبي بوصفه تجسيدا لبنية، هي بمثابة كل عضوي مركب من علاقات قائمة بين مختلف الدوال، حيث لا يمتلك الدال قيمته إلا في ظل علاقته بالدوال المجاورة ضمن نفس النظام اللساني»³¹ الذي يشترط الانعزال عن التظاهرات السياقية المحيطة به كشرط صميمي لصياغة مجاله التحليلي.

بناء على هذا المرتكز الألسني البنيوي، تمكنت الشعرية من استعادة وضعها المعرفي المنهار بفعل انهيار البلاغة الكلاسيكية، باستقطاب النموذج البلاغي الأرسطي التأسيسي، واستدعاء المنطق التحليلي الذي كان ينهض عليه، انطلاقا من المنظور اللساني الذي أشار من خلال تفاعله مع الشعرية إلى ضرورة « التفكير القائم حول اللغة منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا [...] وهو الأمر الذي يستدعي القيام بعملية حفر في ذاكرة النقد الأدبي انطلاقا من ارسطو الذي حدد وظيفة البلاغة في ضوء فنين أو أسلوبين في التفكير هما: الشعرية والخطابة»³²، على نحو يستوجب التفاعل المنهجي والإجرائي بين المبحثين.

وهو مطلب استحضرته الشعرية الغربية الحديثة، ضمن مسعى تمثلها لآليات مقارنة النصوص الأدبية، حيث عمدت إلى استدعاء منطق التحليل الأرسطي البلاغي القائم على التفاعل بين (الخطابة والشعرية)، لينعكس مبدأ التفاعل الذي أقره "أرسطو" على حدث التجاذب بين الشعرية واللسانيات.

وعليه، فإن ملامح التأسيس المعرفي للشعرية الحديثة تستند إلى مرجعية مزدوجة، تتوخى في من خلال اللجوء إلى المرجع التأصيلي « الاستفادة من البلاغة التقليدية، وتزويدها

بالأداة الكفيلة بتحويلها من بلاغة معيارية إلى بلاغة إجرائية، قادرة على وصف النصوص الأدبية وتفسيرها»³³، لتتصرف مع المرجعية الألسنية الحديثة صوب تمثل المقولات الجوهرية التي تعينها على تقديم قراءة تقويمية للمنجز البلاغي الكلاسيكي عبر الأنموذج البنيوي، وهو ما يمكن أن نمثله من خلال المخطط التشجري الآتي:



ومن ثم، تهيأ للشعرية اكتساب موقعها المعرفي المتجدد بفعل الاستمداد المنهجي والإجرائي من الحقل الألسني، فبعد أن فقدت الشعرية روافدها العلمية إثر انهيار الأنموذج البلاغي الكلاسيكي، تمكنت من الانبعاث بالاعتماد على المنطلق الألسني، الذي أحال الشعرية إلى مقارنة محايدة للأدب³⁴، إذ لم تعد الشعرية مجرد مقارنة تنهض على « صياغة كلام فضفاض عن النص، أو تلخيص فطن للعمل الملموس»³⁵، وإنما أصبحت تتطلع إلى « اقتراح نظرية لبنية الخطاب الأدبي واشتغاله، نظرية تقدم جدولاً للإمكانات الأدبية»³⁶ المحتمل تحققها.

وقد أثبتت اللسانيات قدرتها على تزويد الشعرية بالآليات الإجرائية الكفيلة بتحليل النص الأدبي وفقاً للمنظور البنيوي، الذي يأخذ بالتصور الألسني القائم على النظام الثابت الذي يفرزه اللسان (*Langue*)، والذي تتحكم فيه مجموعة من القوانين المحايدة التي « لا يمكن أن تكون تابعة ومتعلقة بالوعي الفردي»³⁷، لأنها تعكس الوجود التجريدي للسان، المتعارض مع التجليات الفعلية للكلام، حيث يتحقق الاستعمال الواقعي للغة. ولذلك أشار "دوسوسير *F.DE.Saussure*" إلى ضرورة « الانطلاق من اللسان كنظام للصيغ، تعود هويته وتحيل على معيار، وتوضيح كل وقائع اللغة عن طريق الإحالة على صيغها الثابتة والمستقلة (المقننة من تلقاء نفسها)»³⁸

تماشياً مع هذا المطلب الذي اقترحته اللسانيات البنيوية، عمدت الشعرية إلى تقديم رؤيتها التحليلية للنص الأدبي، بالاعتماد على المنطلق الألسني الذي ميّز بين الجانب التجريدي للسان (*Langue*)، والبعد الواقعي الفعلي للكلام (*Parole*)، فكان أن استندت على هذا التمييز، واقترحت مقابلاً له، يتمثل في ثنائية (الأدب/الكلام الأدبي) "39"، فإذا كان موضوع اللسانيات قد تحدد من خلال اللسان، لكونه نتاجاً اجتماعياً لملكة اللغة، « ومجموع التعاقدات الضرورية التي يتبناها المجتمع لكي يتمكن الأفراد من ممارسة هذه الملكة »⁴⁰، فإن موضوع الشعرية يتحدد وفقاً لمعيارية التحديد الألسني، إذ « ليس العمل الأدبي في حد ذاته هو موضوع الشعرية، فما تستنطقه هو خصائص هذا الخطاب النوعي الذي هو الخطاب الأدبي. وكل عمل عندئذ لا يعتبر إلا تجلياً لبنية محددة وعامة، ليس العمل إلا إنجازاً من إنجازاتها الممكنة [...] وبعبارة أخرى يعنى بتلك الخصائص المجردة التي تصنع فرادة الحدث الأدبي، أي الأدبية »⁴¹، والتي تتعامل مع النص الأدبي بوصفها بنية كبرى تتعالق مع مجموعة من البنى لتعكس النظام الذي ينهض عليه الأدب.

وقد انعكست هذه الرؤية على مختلف المقاربات الشعرية المنبثقة عن التيار البنيوي، سواء أكانت تلك المقاربات الشكلية التي باشرها الشكلانيون الروس، أم الوظيفية التي تجسدت - بصورة واضحة - في مدرسة براغ، إذ « ترجع محاولة تأسيس شعرية حديثة إلى الشكلانيين الروس، الذين كان يدفعهم إحساس بضرورة إقامة علم الأدب، بمعنى وضع مبادئ مستمدة من الأدب نفسه »⁴²، وهو ما دفعهم إلى التغافل عن المعيطات السياقية التي تربط النص الأدبي بواقعه الخارجي، والاكتفاء بمعالم المقاربة البنيوية التي تتعامل مع النص الأدبي « بوصفه واقعة قابلة للبحث العلمي، وبوصفه مجموعة من خصائص الفن القول »⁴³ المغلقة على بنية اللغة الداخلية للأدب، وهو ملمح تحليلي اقتضى من الشكلانيين الروس « نبذ الاتجاهات الفلسفية والنفسية والجمالية [...] فضلاً عن نبذ تناول الإيديولوجي، ولا يعني هذا إلغاء وشائج الأدب مع الحياة، بل إلغاء صلاحية هذه الوشائج في استنباط خصائص الأدب »⁴⁴ لأنها لا تتناسب مع التصور المنهجي الذي تنهض عليه المقاربة الشعرية الشكلانية.

ضمن هذا المسعى، عمدت المدرسة الشكلانية إلى مقارنة النص الأدبي « من خلال معارضته بما هو غير أدبي »⁴⁵، وقد أفضى هذا التقابل إلى انبثاق ثنائية (اللغة الشعرية/اللغة اليومية)، بالاستناد إلى غائية الحدث التواصلية الذي يتقصده الخطاب العادي، والمقصدية الفنية التي يتوخى تحقيقها الخطاب الشعري، وهو ما تجلّى من خلال المقابلة التي عقدها "ياكوبينسكي *Yakoubinsky*"، والتي أشار من خلالها إلى ضرورة تصنيف الظواهر اللسانية، تبعاً للهدف « الذي تتوخاه الذات المتكلمة في كل حالة على حدة.

فإذا كانت الذات تستعمل تلك الظواهر بهدف عملي صرف، أي التوصيل، فإن المسألة تكون متعلقة بنظام اللغة اليومية (بنظام الفكر الشفوي)، حيث لا يكون للمكونات اللسانية (الأصوات، عناصر الصرف)، أي قيمة مستقلة

ولا تكون هذه المكونات سوى أداة توصيل⁴⁶، وفي المقابل يمكن « أن نتخيل أنظمة لسانية أخرى -وهي موجودة بالفعل- حيث يتراجع الهدف العملي إلى المرتبة الثانية -مع أنه لا يختفي تماما- فتكتسب المكونات اللسانية إذ ذاك قيمة مستقلة»⁴⁷ عن وظيفة التواصل التي يعكسها الخطاب اليومي، لتتكشف بذلك ملامح الوظيفة الشعرية التي اشترط "رومان ياكبسون *R. Jakobson*" هيمنتها في الخطاب الأدبي.

ولاشك أن إعمال هذا المفهوم، قد دفع "رومان ياكبسون" إلى الالتفات إلى الوظيفة الشعرية التي تؤدها الرسالة، فإذا كانت هذه الوظيفة « لا تلعب في الأنشطة اللفظية الأخرى سوى دور تكميلي وعرضي»⁴⁸، فإنها في الخطاب الأدبي -لاسيما الشعري- تكتسب صفة المهيمن الوظيفي⁴⁹، من خلال « التركيز على بنية الرسالة التي تتشكل من العلاقة القائمة بين مجموعة الأنساق اللسانية التي ينبغي إدراكها في ذاتها»⁵⁰ معزل عن مظهرات أخرى تتعلق بالسياق الخارجي.

وبذلك، تركزت العلاقة الصميمية بين اللسانيات والشعرية، فإذا كانت « الشعرية تهتم بقضايا البنية اللسانية، تماما مثل ما يهتم الرسم بالبنى الرسمية، وبما أن اللسانيات هي العلم الشامل للبنى اللسانية، فإنه يمكن اعتبار الشعرية جزءا لا يتجزأ من اللسانيات»⁵¹، ومطليا جوهريا يستدعي التفاعل بينهما.

خاتمة:

وفي الختام، يمكن أن نقف على جملة من المقولات الجوهرية التي رافقت المسار التحولي للشعرية نجملها على النحو الآتي:

- رافقت الشعرية مختلف الانعطافات المرحلية التي شهدتها المعرفة اللغوية والأدبية بدءا من الأنموذج البلاغي الأرسطي مروراً بالتيار الرومانسي وصولاً إلى الأنموذج اللساني البنيوي.
- تعكس البلاغة التأسيسية التي أنتجها "أرسطو" حدث الانبثاق المعرفي المؤسس على رؤية تفاعلية بين الجانب العقلاني للخطابة والجانب الجمالي للشعرية.

- أدى اضمحلال الرؤية التفاعلية بين الجانب العقلاني للخطابة والبعد الفني للشعرية، إلى فقدان وضعها المعرفي المتميز، الذي اكتسبته في البلاغة التأسيسية، حيث استحالت المقاربة الشعرية إلى مجرد ركام من المعايير البلاغية الصارمة.
- انبثق التيار الرومانسي ليحاول تقديم رؤية نقدية، تستطيع تجاوز المآزق الذي وقعت فيه البلاغة الكلاسيكية من جهة، واستيعاب المنجز النصي الجديد من جهة أخرى.
- ارتبطت مفاهيم الشعرية في ظل التيار الرومانسي بالمفاهيم التي أفرزها النقد الحديث، وهو ما دفع إلى اصطباغ الرؤية التحليلية للأدب بتصورات المنهج النفسي والاجتماعي.
- أدى الإيغال في تبني المقولات والنفسية والاجتماعية إلى تهميش النسق الداخلي للنص الأدبي، والاكتفاء بالتمظهرات النفسية والاجتماعية التي يعكسها الأديب في نصه.
- بناء على الوضع الهامشي الذي اكتسبته اللغة في ظل التصورين التاريخي والمقارن على الصعيد الألسني، انبثقت اللسانيات البنيوية لتعيد الاعتبار إلى بنية اللغة الداخلية.
- امتد هذا الطموح البنيوي إلى الدراسات الأدبية -بما فيها الشعرية-، فكان أن ساهم الأنموذج البنيوي في استعادة الشعرية لوضعها المعرفي المنهار من خلال استدعاء الأنموذج البلاغي الأرسطي من جهة، والتفاعل مع المنظور الألسني البنيوي من جهة أخرى.
- بناء على التصور الألسني البنيوي استحالت الشعرية إلى علم محايت للأدب، لتعكس ذات التوافق المنهجي بين اللسانيات والشعرية.

الهوامش:

- 1- حسن ناظم، مفاهيم الشعرية دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط01، 1994، ص20.
- 2- ينظر، المرجع نفسه، ص20.
- 3- بيار جيرو، الأسلوبية، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ط02، 1994، ص09 وينظر، هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ترجمة وتقديم وتعليق محمد العمري، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1999، ص21.
- 4- أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، الشركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط01، 2011، ص05.
- 5- ينظر، عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة، مقارنة حجاجية للخطاب الفلسفي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 2009، ص16.

- 6- جيارر جينيت، مدخل لجامع النص، ترجمة عبد الرحمن أيوب، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد، العراق، (د.ط.)، (د.ت)، ص17.
- 7- ينظر، المرجع نفسه، ص18، رينيه وليك، أوستين وارن، نظرية الأدب، تعريب عادل سلامة، دار المريح للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1992، ص315.
- 8- هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ص20.
- 9- حسن ناظم، مفاهيم الشعرية دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم، ص21.
- 10- عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة، مقارنة حجاجية للخطاب الفلسفي، ص19.
- 11- يوسف إسكندر، اتجاهات الشعرية الحديثة، الأصول والمقولات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط02، 2008، ص09.
- 12- محمد الماكري، الشكل والخطاب، مدخل لتحليل ظاهراتي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط01، 1991، ص33.
- 13- المرجع السابق، ص86.
- 14- المرجع نفسه، ص86.
- 15- ينظر، بيير جيرو، الأسلوبية، ص39.
- 16- فليب بروطون، الحجاج في التواصل، ترجمة محمد مشبال، وعبد الواحد التهامي العلمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط01، 2013، ص11.
- 17- المرجع السابق، ص36.
- 18- المرجع نفسه، ص36.
- 19- جون كوين، النظرية الشعرية، بناء لغة الشعر، اللغة العليا، ترجمة وتقديم وتعليق، أحمد درويش، دار غرب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2000، ص42 وما بعدها.
- 20- يوسف إسكندر، اتجاهات الشعرية الحديثة، الأصول والمقولات، ص10.
- 21- المرجع نفسه، ص10.
- 22- ينظر، فاضل ثامر، اللغة الثانية، في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط01، 1994، ص129.
- 23- ينظر، ماري أن بافو، جورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، ترجمة: محمد الراضي، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط1، 2012م، ص105.
- 24- حسن ناظم، مفاهيم الشعرية دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم، ص66.
- 25- مبارك حنون، مدخل إلى لسانيات سوسير، دار توبقال للنشر، دار البيضاء، المغرب، ط01، 1987، ص05.
- 26- ماري أن بافو، جورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، ص105.
- 27- المرجع نفسه، ص105.
- 28- مبارك حنون، مدخل إلى لسانيات سوسير، دار توبقال للنشر، ص05.
- 29- ميلكا إفييتش، اتجاهات البحث اللساني، ترجمة سعد عبد العزيز مصلوح، وفاء كامل فايد، المجلس الأعلى للثقافة، ط02، 2000، ص194.

- 30- محمد العياشي كنوني، شعرية القصيدة العربية المعاصرة، دراسة أسلوبية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط01، 2010، ص05.
- 31- المرجع نفسه، ص49.
- 32- المرجع نفسه، ص06.
- 33- المرجع نفسه، ص06.
- 34- ينظر، حسن ناظم، مفاهيم الشعرية دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم، ص06. ويوسف إسكندر، اتجاهات الشعرية الحديثة، الأصول والمقولات، ص10. تزيفيطان تودوروف، الشعرية، ترجمة، شكري المبخوث، ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط02، 1990، ص23.
- 35- تزيفيطان تودوروف، الشعرية، ص23.
- 36- المرجع نفسه، ص23.
- 37- ميخائيل باختين، الماركسية وفلسفة اللغة، ترجمة محمد البكري ويمنى العيد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط01، 1986، ص72.
- 38- المرجع نفسه، ص80.
- 39- ينظر، حسن ناظم، مفاهيم الشعرية دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم، ص71.
- 40- مبارك حنون، مدخل إلى لسانيات سوسير، ص23.
- 41- تزيفيطان تودوروف، الشعرية، ص23.
- 42- حسن ناظم، مفاهيم الشعرية دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم، ص79.
- 43- المرجع نفسه، ص79.
- 44- المرجع نفسه، ص79.
- 45- يوسف إسكندر، اتجاهات الشعرية الحديثة، الأصول والمقولات، ص32.
- 46- بوريس إيخنيانوف، نظرية المنهج الشكلي، في نصوص الشكلايين الروس، ترجمة إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط، المغرب، ط01، 1982، ص36-37.
- 47- المرجع نفسه، ص37.
- 48- رومان ياكبسون، قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي، ومبارك حنون، دار توبقال للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط01، 1988، ص31.
- 49- ينظر، المرجع نفسه، ص31.
- 50- محمد العياشي كنوني، شعرية القصيدة العربية المعاصرة، دراسة أسلوبية، ص45.
- 51- رومان ياكبسون، قضايا الشعرية، ص24.

قائمة المصادر والمراجع:

- أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، الشركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط01، 2011.
- بوريس إيخنباوم، نظرية المنهج الشكلي، في نصوص الشكلانيين الروس، ترجمة إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، الشركة المغربية للنشرون المتحدين، الرباط، المغرب، ط01، 1982.
- ببيرو، أسلوبيّة، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ط02، 1994.
- تزيڤيطان تودوروف، الشعرية، ترجمة، شكري المبخوث، ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط02، 1990.
- جون كوين، النظرية الشعرية، بناء لغة الشعر، اللغة العليا، ترجمة وتقديم وتعليق، أحمد درويش، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2000.
- جيرار جينيت، مدخل لجامع النص، ترجمة عبد الرحمن أيوب، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد، العراق، (د.ط.)، (د.ت).
- حسن ناظم، مفاهيم الشعرية دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط01، 1994.
- رومان ياكبسون، قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي، ومبارك حنون، دار توبقال للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط01، 1988.
- رينيه وليك، أوستين وارن، نظرية الأدب، تعريب عادل سلامة، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1992.
- عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة، مقارنة حجاجية للخطاب الفلسفي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 2009.
- فاضل ثامر، اللغة الثانية، في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط01، 1994.
- فليب بروطون، الحجاج في التواصل، ترجمة محمد مشبال، وعبد الواحد التهامي العلمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط01، 2013.
- ماري أن بافو، جورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، ترجمة: محمد الراضي، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط1، 2012.
- مبارك حنون، مدخل إلى لسانيات سوسير، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط01، 1987.
- محمد العياشي كنوني، شعرية القصيدة العربية المعاصرة، دراسة أسلوبيّة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط01، 2010.
- محمد الماكري، الشكل والخطاب، مدخل لتحليل ظاهراتي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط01، 1991.
- ميخائيل باختين، الماركسية وفلسفة اللغة، ترجمة محمد البكري وبنى العيد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط01، 1986.

-
- ميلكا إفيش، اتجاهات البحث اللساني، ترجمة سعد عبد العزيز مصلوح، وفاء كامل فايد، المجلس الأعلى للثقافة، ط02، 2000.
 - هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ترجمة وتقديم وتعليق محمد العمري، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1999.
 - يوسف إسكندر، اتجاهات الشعرية الحديثة، الأصول والمقولات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط02، 2008.